الجواهري في ذكرياته (*)

أ.د.عماد الجواهري
أستاذ التاريخ / جامعة القادسية

من المفهوم ان تدوين الشاعر لذكرياته مادة مكتوبة ، بضخامة ما نشره الجواهري الشاعر الكبير ، يعني بداهة الانقلاب من صناعة الشعر الى صناعة التأريخ... والجواهري الشاهد على العصر طوال قرن كامل لجدير بهذه المهمة الشاقة بالرغم مما يكتنفها من صعاب ، واولها شيخوخته التي اختزنت ذكريات ثمانية عقود او يزيد .

المعروف ان الشاعر لم يكن من اصحاب اليوميات التي يمكن ان تسعفه وهو يكتب ذكرياته في اخريات عمره الزاخر بالاحداث ، غير انه والحق يقال امتلك حافظة عجيبة ، كما ادخرت مكتبته دواوين شعره المطبوعة وعشرات القصائد غير المنشورة ، وجميعها ادوات تجعل من مهمة تدوين الذكريات عملية ممكنه خاصة اذا ما عززتها المراجع الموثقة من تاريخ العراق المعاصر ، الامر الذي لم يفت على الشاعر فكان اهلا لهذه المهمة التي انجزت في نهاية المطاف احد اهم واخطر كتب المذكرات في تاريخ العراق المعاصر كونها لم تتصد للتاريخ السياسي حسب ، بل للتاريخ الاجتماعي بأبعاده الفكرية _ الثقافية والادبية فضلا عن تناولها لبعض الجوانب الاقتصادية قدر صلتها بالموضوع . و مما لاشك فيه فقد كان الشعر ديوان العرب ، ضم اخبارهم وأنسابهم و ايامهم وفيها احداث انتصاراتهم وهزائمهم ، ولقد تعددت أغراض الشعر والوانه ، فمنه الوجداني الذي يعكس حياة الشاعر ، أفكاره وآماله ومنه ما استخدم لاغراض المديح والرثاء والهجاء وغيرها ، وهو بالجملة أعظم مادة محفوظة جعلت من التاريخ رواية قابلة للتداول على الشفاه و من ثم زخرت بها بطون كتب التاريخ .

هكذا يمكن ايضا فهم ذكريات الجواهري أنها تستند في مجملها الى شعره ، فالمجاميع الشعرية والمقصود بها : مجموعة منظومات عكست حياة الشاعر في المكان والزمان و دوره في الاحداث ، لذا فان الصورة الاكثر بريقا لهذه الذكريات هي انها قابلة للتقويم بوصفها يوميات عندما نرى في القصيدة انها مرآة للاحداث بقدر ما هي مرآة لذات الشاعر ووجدانه .

ازاء هذا النتاج الضخم من الذكريات المطبوع بجزأين الاول عام ١٩٨٨ والثاني عام ١٩٩١ يمكن القول دون تحفظ ان هذه الذكريات ما كان لها ان تظهر بحجم ما ظهرت عليه من دقة و على نحو ما انطوت عليه من توثق لو لم تكن قد صدرت أجزاء منها على مراحل متعاقبة ظلت على الدوام تسعف ذاكرة الجواهري الحية ، فقد اصدر الشاعر اول دواوينه عام ١٩٢٨ وضم غرر قصائده مؤرخة و مسببة بما احاط بها من ظروف ، ثم تتابعت دواوينه على الصدور على نفس المنهج والمراعاة لذات الاصول .(ديوان الجواهري / النجف ١٩٣٥ ، بغداد / ١٩٤٩ – ١٩٥٣ ، دمشق ١٩٥٧ ، بغداد / ١٩٦١ ، بريد الغربة / براغ ١٩٦٥ ، المجموعة الكاملة / بيروت ١٩٦٨ – ١٩٦٩ ، بريد العودة / بغداد١٩٦٩ ، ايها الارق / بغداد ١٩٧١ ، خلجات / بغداد ١٩٧٢، الجواهري في جامعة الموصل / ١٩٨٠ .

(*) دراسة الاستاذ الدكتور عماد احمد عبد الصاحب الجواهري رئيس جامعة القادسية في ندوة بانيقيا الثانية التي اقامها اتحاد الأدباء والكتاب في النجف ، بعنوان : الجواهري في بيت طفولته ، للمدة من ٢٣-٢٠٠٨/١٠/٢٤ .

لقد كان إنغماس الشاعر في الحركة الوطنية وشاعريته الفذة سببا" لتسابق الصحافة الادبية والسياسية على نتاجه الشعري لنشره متصدرا" صفحاتها الاولى او الادبية مع المامة معتبرة بظروف القصيدة او مناسبتها وما تحمله اعمدتها من رصد لحركة الدولة حكومة وبرلمان ومؤسسات في اطار ظروف الزمان والمكان .

ان هذا بمجموعه يصب في حقيقة منهجية مهمة وهي ان ذكريات الجواهري استمدت معينها من اصول على درجة عالية من المصداقية والموضوعية التأريخية . ولا شك في ان افتراض توفر هذه الادوات بين يدي الشاعر وكذلك الاشخاص الذي راجعوا المذكرات معه ، يعني ببساطة ان المتابع للمذكرات لن يجد صعوبة في اكتشاف تعارضها أو عدم توافقها مع ظروف الحدث واسبابه ، وبالتالي تقويم حقيقة دور الشاعر على النحو الذي استعرضته الذكريات .

ثمة حقيقة أخرى مهمة ، هي ان الشاعر بالرغم مما عرف عنه من نتاج شعري زاخر ودور وطني هادر وعمر مديد ، لم يُحظ بدراسات أكاديمية مستقلة قبل وفاته تتناول على وجه التخصيص حياته وافكاره ومواقفه وجهاده الصحافي ، متمثلا" بالصحف التي اصدرها وهي : الفرات / ١٩٣٠ والانقلاب / ١٩٣٦ والرأي العام / اعتبارا" من ١٩٣٧ وغيرها، مما حرمه من الافادة منها عند تدوينه ذكرياته، وأسباب ذلك تعود على ما يبدو الى احجام المعاهد العراقية بخاصة عن الاذن للراغبين – على ما يبدو – بذلك من طلبة الدراسات العليا ؛ لاسباب مختلفة بعضها سياسي والبعض الاخر طائفي امعانا" منها في اضطهاد الشاعر المعارض لسياسة الحاكمين ، أو اشهارا" لبغضهم ازاء انتماء الشاعر الفكري السياسي ابان احتدام الصراع بين الشيوعيين والقوميين غداة قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .

من نافلة القول نشير الى أن الجفوة بين الشاعر والتيار القومي غذتها أسباب مختلفة ، لعل في مقدمتها موقف الحصري (ابو القومية العربية) من الشاعر في قضية النصولي – المنتفكي و مضاعفاتها عام ١٩٢٧ ، كذلك موقف الشاعر المساند لانقلابيي عام ١٩٣٦ ، و انحياز الشاعر لقاسم و اليسار الديمقراطي في مواجهة طلاب الوحدة الفورية من القوميين عام ١٩٥٩ ، واخيرا" تنديده بانقلابيي عام ١٩٦٣ .

الحصري والحصرية (الحصري، مذكراتي في العراق بيروت ١٩٦٧–١٩٦٨) طاب لهم ان يضعوا على جسد الشاعر عباءة الشعوبية الفضفاضة ، ولم تشفع له عندهم قصائده ومواقفه من الزعيم الخالد ياسين الهاشمي ولا رثائه لدمشق التي استباحها الفرنسيون ولا انتصاره لقضية فلسطين ولا تمجيده لجهاد الجزائريين ولا تعظيمه لبطولات مصر وهي تواجه الغزاة المعتدين . وببساطة فتلك كانت مواقف لا تنسى والاخيرة مواقف ليس من المصلحة ان تذكر ؛ وذكريات الشاعر عن هذه وتلك تطفح بالمرارة وتزيل الاستار وحين يفرد الشاعر في ذكرياته فصلا للحصري و(عصابته) يعيد الى الذاكرة ما نسي من اعمالهم و ما لم يفضح من اسرارهم .

فالشاعر لم يدخر ذكرياته جميعها لاخريات حياته، فلقد اتيح له ان يلتقي اكثر من لقاء مع صحافي او اديب ليروي له ابتداء وانتهاء ويجيب على الاسئلة من دون تحفظ أو موارية . و لعل أكثر هؤلاء حظا" هو الصحفي الاديب فاروق البقيلي الذي نشر جانبا" من ذكريات الشاعر عام ١٩٧٤ ، لتصبح هذه الذكريات من الاصول المعتمدة في سِفر ذكرياته الضخم الذي نشر بعدئذ . وغني عن القول ان جرأة الشاعر وصراحته قد أثارت عليه حفيظة الكثيرين ، وببساطة فأن الشاعر نال من تقية المحافظين وتبعية الملكيين وحصرية القوميين وجبروت البعثيين ، وبالرغم من ذلك لم يشأ ان يرد على الشاعر الا بعض المغفلين ؛ ومرد ذلك سببان : اولهما ان الشاعر كان حصتهم الى حين وثانيهما تحاشيا من قريحته و شاعريته التين لم تفارق ملكتهما واعجازهما الشاعر وهو يجتاز عقده العاشر .

لعل اهم ما يمكن ان يستخلصه المتمعن في تحليل سايكولوجية الشاعر ، ان اثارة غضبه كان يمنحه دفقا من الحياة قد يتجاوز عقدا" جديدا" من السنين ، ولنا ان نشير هنا الى : " غاشية الخطوب" و " على قارعة الطريق" و " ارح ركابك" و " اعياد الثمانين " ، ففي كل واحدة من هذه القصائد التي تكاد تمثل مطلع عقد جديد في حياة الشاعر ، ثورة من الغضب الطافح وزئير منبعث من الاعماق فحياة متجددة ولو الى حين . والمراقب لحياة الشاعر بعد صدور الجزء الثاني من الذكريات عام ١٩٩١ ، يجد دفق الحياة ما زال مستمرا" في عروقه وقضية شعبه لم تزل سببا" لوجوده .

في حراك ادبي سياسي أخير حمله الى التنقل بين بيروت و الرياض و طهران وعمان ودمشق خلال السنوات الخمس الاخيرة قبل وفاته ، تراجعت فجأة حيوية الشاعر وصار يميل الى النوم الطويل قبل ان يداهمه غول السرطان عام ١٩٩٧ ، الغول الذي اختطف أحبابه السامر والطاهر وفرات وونوس.

هكذا اذن عقدا" من السنين او يزيد ظلت خارج كتاب الذكريات ، افادتنا عنها صحائف الاخبار بالنزر القليل ، وبث لنا التلفاز بواسطة القرص المضغوط (يابن الهواشم) اخر القصيد ، ونشر صهره الصحفي الاديب صباح المندلاوي ذكرياته : (في رحاب الجواهري ، دمشق ٢٠٠٠) .

وصفوة القول ان المؤرخ المدقق لذكريات الجواهري ، يصل الى حقائق جوهرية ، ابرزها : ان التناقض هو اساس الحركة وهو مدخل مهم لفهم حياة الجواهري ، التي بلغت ذروة جذوتها حتى نال منها امرا" مجهولا" خلال احدى رحلاته في سنواته الاخيرة ، ترى هل احيط علما" بما سيحصل للعراق ؟ ربما ... على ان الجواهري ما كان ليعيش القرن العشرين بأكمله ، لولا تلك الديناميكية التي بعثتها فيه ظاهرة التناقض ، فهو سليل اسرة آية الله العظمى صاحب الجواهر النجفي المفتون بالتيارات الفكرية الحديثة المتطلع الى الحواضر الكبرى كبغداد وطهران والشام. وهوالمؤمن الذي بهرته كتابات شبلي المادية شميل في أوائل القرن وهو ابن الحوزة الذي ينعى على حامل الشهادة انه قارئ سطرا" . وهو العاشق الذي لا يمتلك في وجهه صورة فارس الاحلام . وهو المناضل الذي لا يمتلك من ادوات النضال غير لسانه وقلمه .

لعل المدخل الثاني لفهم الشاعر في ذكرياته هو : حافظة الشاعر وشاعريته ، فحافظته للمتنبي والبحتري وابي فراس وغيرهم أثرت تأثيرا" مؤكدا" في سلوكياته وبخاصة أزاء الحكام في عصره مدحا وقدحا تبعا للمواقف والظروف أما شاعريته فكانت تعبر عن معتقده وأفكاره على نحو صادق وثيق .

اخيرا" فان المدخل الثالث لفهم الجواهري في ذكرياته ، هو : علاقته بالحكام ورجال السياسة في عصره الذي استغرق القرن العشرين بأسره فعلاقته بهؤلاء الحكام تعكس جوانب متضادة شكلت أرهاصات اخرى في حيوية الشاعر و تدفقه ، وهذا التضاد تكمن ابعاده في الجوانب الاتية :

١/ انتمائه الصميمي الى الشعب و قضيته .

٢/ رغبة الحاكمين لتحاشي لسانه الذي يستطيع به اثارة الجماهير.

٣/ رغبة الحاكمين في قصيدة مديح وكأن لسان حالهم يقول ها هو الجواهري يمدحنا .

من الناحية التاريخية فان ظاهرة التجاذب والافتراق بين الجواهري ورجال الحكم والسياسة افادت المؤرخين المطلعين في الكشف عن حقائق جديدة، بل الوصول الى نتائج مذهلة احيانا" من قبيل ازاحة الستار عن اسرار شخصية لم تنلها اقلام المؤرخين قط : الحصري و معتقده، الملك فيصل الاول ووفاته الغامضة ؛ انقلاب عام ١٩٣٦ وتداخلاته ؛ رشيد عالي وصلته بمصرع الملك غازي ، عبد الكريم قاسم وتقلب مزاجه .

ختاما لا بد من الاشارة الى أن ذكريات الجواهري على الرغم من كل ما حفلت به من رصد لحركة التاريخ على مدى القرن العشرين ، الا انها اتسمت بمفارقتين هما :

١/ ان سياق الاحداث و مسارها يبدو منطقيا" وسليما" الا ان ذاكرة الشاعر لم تسعفه في تذكر محطات مهمة في حياته الادبية وفي مقدمتها بعض الدوريات التي نشر فيها في مقتبل حياته فجاءت مغلوطة، والامر نفسه ينصرف الى تقديم الشاعر صورة دقيقة للاجواء التي عاشها داخل اسرته الجواهرية، الا ان عملية فحص الاسماء تبدو لنا غير دقيقة مع يقيننا ان الشاعر لا يمكن ان يخطأ بها .

٢/ لم يرقَ الجزء الثاني من الذكريات من ناحيتي العرض الموضوعي وتقويم الاحداث الى المستوى الذي بلغه الجزء الاول على الرغم من ان التناقض بين الشاعر والحاكم والمدينة (جبرا ابراهيم جبرا ، النار والجوهر) انتهى بوفاة الشاعر في غربته .

من هنا يقتضي الواجب ان ننوه الى ان اعادة طبع ذكريات الجواهري محققة هي ضرورة علمية وتأريخية .

المراجع :

- محمد مهدي الجواهري – ذكريات ج ١ ،٢ دمشق ١٩٨٨ ، ١٩٩١ .
- محمد مهدي الجواهري – ديوان الجواهري ، سبعة اجزاء طبعة جديدة بالاوفست بلا تاريخ.
- محمد مهدي الجواهري ، حلبة الادب ، بغداد ١٩٢٨.
- محمد مهدي الجواهري ، بريد الغربة ، براغ ١٩٦٥.
- محمد مهدي الجواهري ، بريد العودة ، بغداد ١٩٦٩ .
- محمد مهدي الجواهري ، خلجات ١٩٧٢.
- جبرا ابراهيم جبرا _ النار والجوهر ، بيروت، دار القدس، ١٩٧٥.
- صباح المندلاوي – في رحاب الجواهري ، دمشق ٢٠٠٠.
- عبد الرضا علي و سعيد جاسم الزبيدي ، الجواهري كلمات ومختارات ، جامعة الموصل ١٩٨٠.
- فاروق البقيلي – ذكريات الجواهري ، بيروت ١٩٧٤ .